مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مَجلّةٌ - إسلامِيّةٌ - ثقافِيّةٌ - جامِعةٌ - مُحكمَةٌ

تَصدُرُ سَنوِيّاً عَن

كُليّةِ الدّعوةِ الإسلامِيّةِ

العددان الواحد والثلاثون والثاني والثلاثون

لسنة 1439 – 1440 الهجرية الموافق: 2017 – 2018 الميلادية

ملامح فنية في أعمال الشيخ عبد السلام خليل النثرية

د. عبد الستار العريفي بشيه
جامعة طرابلس - ليبيا

يُعدُّ الشيخ عبد السلام خليل من الأدباء الذين جمعوا بين الشِّعر والنَّثر، وهذا ما عَبَّر عنه أستاذي عبد الحميد الهرامة في مقاله: (ظاهرة الشُّعراء الكتاب في ليبيا)[1]، واختار ثلاثة نماذج: الأُستاذ عبد السلام خليل، والشيخ فتح الله حواص، والأستاذ خليفة التليسي، وقد خصَّ الباحث شعر الأُستاذ ببحوث منها: القضايا الإسلاميَّة والعربيَّة في شعر عبد السلام خليل[2]، الشمائل النبويَّة في شعر عبد السَّلام خليل[3]، وأُطر البِنية الشِّعريَّة عند عبد السَّلام خليل[4]، وعقد هذا البحث ليتناول بعض أعمال الشيخ النثريَّة بالعرض وبيان قيمتها الفنِّيَّة، أما أعماله النثرية فتوزعت على أكثر من جنس نثري، وغرض فنِّي، منها: الخطابي، والمقالي، والمَسْرحي، والتمثيلي، وبعض الكلمات الترحيبيَّة، ارتجالًا، وإملاءً وغيرها، وسيجلي هذا البحث بعض الملامح العامة، والخاصَّة لنثر الأستاذ عبد السلام خليل.

(1) **مجلة كلية الدعوة الإسلامية**، ع12، 1995م، ص289.
(2) المؤتمر الدَّولي الخامس، كلِّيَّة دار العلوم، جامعة المنيا، 8-10 مارس 2009م.
(3) مؤتمر التُّراث النبوي الثَّاني، كلِّيَّة دراسات القرآن والسُّنة، جامعة العلوم الإسلاميَّة- ماليزيا، 28-29 يوليو2010م.
(4) النَّدوة العِلْميَّة الأُولى الشيخ عبد السَّلام خليل- قسم اللُّغة العربيَّة- كلِّيَّة الآداب- جامعة طرابلس- ليبيا، 6 يونيو2013م.

فن الخطابة:

يُعدُّ فن الخطابة من الفُنون النثريَّة التي عَرفها العرب قبل الإسلام، ويرى بعض النقاد تميُّز العرب به عن غيرهم من الشُّعوب؛ لذا ظلَّت للخطب أهمِّيَّة وضرورة مُلحَّة، وحُضور دائم في حياة العربي، وبخاصَّة بعد ظُهور الإسلام واحتياجهم لها في مُناسباتهم الدِّينيَّة، عَرَّفها الكلاعي بقوله: «الخطبة عند العرب تقوم على كلام منظوم له بال»[1]، وقد اعتمد الخُطباء على قُوَّة البدائه والطِّباع، فارتجلوا الخطب البليغة في يُسرٍ وسهولة، قال الجاحظ: «كُلّ شيء للعرب فإنَّما هو بديهة وارتجال، وكأنَّه إلهام، وليست هُناك مُعاناة ولا مُكابدة، ولا إجالة فكر ولا استعانة، وإنَّما هو أنْ يصرف وهمه إلى الكلام»[2]، أسعفتهم في ذلك القُدرة على التركيب اللُّغوي والبياني، وما جُبِلوا عليه من مواهب فطريَّة من فصاحة وبلاغة، وتمييزهم للجيِّد والرديء من الألفاظ والمعاني، فصاغوها في أقوى المباني؛ فكانت مَثار اهتمام المُصنِّفين في مُصنَّفاتهم، فخُطَبُ البُلغاء ممَّا يحتاج إليه الكُتَّاب؛ لما فيها من أسرار بلاغيَّة، وألوان حكميَّة، بها تفاخرت العرب في مواقفهم الأدبيَّة، وبها نطقت الخلفاء والأمراء على الأعواد المنبريَّة، في مُناسبات دينيَّة واجتماعيَّة وسياسيَّة، وقد يؤخذ على مؤرخي الأدب بِصِفة عامَّة عدم تدوينهم لمِثل هذا الفن النثري، ومرجع هذا هو صُعوبة تدوين بعض الفنون النثريَّة التي كان إلقاؤها ارتجالًا كالخُطب، والمُنافرات وغيرها؛ لذا ضاعت بعض دواوين النثر من ضِمن ما ضاع من تراث الأُمَّة الزاخر.

وقد عُرف الشيخ خطيبًا في بعض المحافل الدِّينيَّة والاجتماعيَّة، فقام خطيبًا في بعض المساجد بمُناسبة افتتاحها وغيرها من المُناسبات، سبيله في ذلك الارتجال دون الإعداد لفُقدان حاسَّة بصره، وقد عدَّ بعض الخطب، منها: خطبة النكاح[3]، التي نحن بصدد الحديث عنها.

(1) **إحكام صنعة الكلام**، ص166.
(2) **البيان والتبيين**، 3/ 28.
(3) من مكتبة أُسرة الشيخ رحمه الله.

فَمِمَّا جَرَت به العادة عند المُسلمين **خُطبة النكاح** التي يقدّم بها مراسم القَبول والإيجاب بين المُتعاقدين، وليي المخطوبين، وربَّما رأى الشيخ عبد السَّلام بعض المأذونين الشرعيين يخلطون في تركيب بعض كلامهم، ويُخطِئون في بعض معانيهم، فأعدَّ لهم هذه الخُطبة الرائعة، وقد خطب بها بعضهم، فكانت محط أسماع المُتلقِّين، فأعجبوا بها، وأثنوا على قائلها ومُردِّدها، فقال في مُستفتحها: «الحمدُ للَّهِ الذي جعل النِّكَاحَ من سُنَنِ الأنبياءِ، نجوم المُجتمع البشري وسادةِ الإنسانيَّةِ جَمْعاء، وجعله مِفتاحاً لعالَمِ الطُّهرِ والنَّقاءِ؛ لِمَن تَحَلَّى بالعِفَّةِ والنَّزاهةِ واتَّقَى اللهَ واتَّبَعَ الهُدَى»؛ كانت براعة الاستهلال فيها رائعة، فبعض ألفاظ النَّص من الألفاظ والتعابير الحديثة والمُنسجمة مع غرض الخُطبة، ثم عرض لموضوع الزَّواج وأهمِّيته للفرد المُسلم وبِنْية المُجتمع السَّليم فقال: «إنَّ النِّكاح يُولِّدُ الثقةَ بالنَّفسِ، والشعورَ بالاستقلاليَّةِ ويُثْمِرُ الاعتمادَ على الذَّاتِ ونَبذِ الاتكاليَّة، وهو تشريفٌ وتمييزٌ للكائنِ الآدمي على غيرهِ من الكائناتِ الحيَّةِ باعتبارهِ سلاحًا يَكبَحُ جِمَاحَ العواطف والنَّزواتِ، وتهذيب الغريزةِ وإسْلاسِ قيادِها، والحَدِّ من طُغيانِ الحيوانِ في كيانِ الإنسانِ، الأمرُ الذي إذا أُرخِي فيه العِنانُ دون تدابيرَ حكيمةٍ وقيودٍ صارمةٍ؛ لأدَّى إلى انتشارِ الإباحيَّة، والفوضى الأخلاقيَّة، وتَفَشِّي البوهيميَّةِ غيرِ المسؤولةِ، ولحدَثَ انطلاقٌ غريزيٌ أهوجُ مسعورٌ يُدمِّرُ الحواجزَ بين الفضيلةِ والرذيلةِ ويهبِطُ بالإنسانِ الذي كَرَّمهُ اللهُ بالآدميةِ وميَّزَهُ بالعقلِ وفضَّلَهُ على كثيرٍ من خَلقِهِ تفضيلاً إلى حضيضِ الدَّوابِّ الخَرساءِ»، كما بيَّن فساد المذاهب الغربيَّة في مفهومها للزواج فقال: «إنَّ النكاحَ شَرِكةٌ بين طرفين قوامُها الحبُّ والمودَّةُ والرَّحمةُ والأُلفةُ الحَسنةُ والمُشاركةُ الوجدانيَّةُ، وتقاسمُ المسؤوليَّة، ونُكرانُ الذَّاتِ، والاستعداد للتضحياتِ بلا حُدود، والتَّسامِي عن حضيضِ المُشاجراتِ والمُهاتراتِ التي كثيراً ما تنقلب إلى رياحٍ عاتيةٍ تَعصِفُ بعشِّ الزوجيةِ، وتُطوِّحُ ببراعمَ أبرياء إلى التَّشرُّدِ والضَّياعِ والإهمالِ، وكان من الميسورِ الحيلولةُ دون هُبوبِ تلك الزوابعِ المُدمِّرة بشيءٍ من الحِكْمةِ والأَنَاة والرَّويَّةِ، والاحتكام إلى العقلِ والدِّينِ والانتظارِ فترة من الزمن حتَّى انطفاءِ جمرةِ الغضبِ واستعادةِ العقلِ لسيطرته على العواطفِ التي لا تلبث أنْ يُزايلها

الهياجُ والتوقُّدُ الذي هو من صُنعِ الشَّيطانِ، وتعودُ إلى الفُتورِ والبُرودِ ولم تلبث أنْ تعقبها فترةٌ من النَّدمِ حيث لا يُجدِي النَّدمُ ويتمزَّقُ الشِّراعُ وتهوي السَّفينةُ إلى القاع»، ثم ختمها بالدُّعاء فقال: «اللَّهم أَلِّفْ بينهما كما أَلَّفْتَ بين آدم وحوا، وبين محمد ﷺ وخديجة الكُبرى، وبين علي -كرم الله وجهه- وفاطمة الزهرا، وبين الصَّالحين والصَّالحات من المؤمنين والمؤمنات»، وبعض هذا الدعاء مألوف في طرابلس وضواحيها، ثم ألحقه بمفاجأة من دعاء نسجه بما يتَّفق مع مُناسبة الخطبة من ذلك قوله: «اللَّهم اجعلهما في عُرسٍ مُستمرّ، وعيشٍ رغدٍ لا يشوب صفاءَه كدر، ووضعٍ هادئٍ مُستقرّ، وجوٍّ رائِقٍ غير مكفهر، ومناخٍ ربيعيٍ مزدهر، وقرة عينٍ مُنتظر، وأحطهما بالرِّعايةِ والعناية في الحَضَر والسَّفر، وفي الجو والبر والبحر، ما امتدَّ بهما العمر»، وقد أحسن التقسيم في فِقَرِ الدعاء؛ إذ قسمه تقسيمًا حسنًا رائعًا، فمن دعواته للعروسين في الحال والمُستقبل، قوله: «اللَّهم اخرِجْ من صُلبيهما فروعاً زكية عاطرة نقية طاهرةً، في نهجِ التُّقى والهُدَى سائرةً، وعلى حرماتِ الله ساهرة، وأسبغ علينا وعليهما من نِعمك الوافرة، وأغدِق علينا وعليهما من عطاياك الغامرة، وجنب -اللَّهم- هذا العش الصَّغير، وبيوتنا جميعاً هبوب الأعاصير، وعوامل الهدم والتدمير، وأسباب التنغيص والتكدير، وكل هولٍ عاصفٍ وشرٍّ مستطير»، ثم توجه بدعواته للحضور وبناتهم وشبانهم بقوله: «اللَّهم هيئ لبناتِ الحاضرين جميع الأسباب للانتقال إلى بيوتِ الزوجية، والتَّمتعِ بحياةٍ هنيّةٍ، وعيشةٍ رضيةٍ، وحَقِّق للشبابِ من الجنسين الأملَ المنشود، وقرِّب لهم انبثاق الفجر الموعود، وافتح أمامهم كلَّ طريقٍ مسدود، يا رحيم يا ودود يا ملك يا معبود»، ثم لمَّا بلغ الغاية ختمها بقوله: «اللَّهم استجِب دعاءَنا، ولا تُخيب رجاءَنا، يا أرحم الراحمين، ويا أكرم الأكرمين، اللَّهم آمين».

إنَّ ما يجذب انتباه المُتلقي -مستمعًا وقارئًا- إليها أنَّ ناسجها اهتم بألوان البيان من تشبيه، واستعارة، وكناية، كما زيَّنها ببعض المُحسِّنات البديعيَّة المعنويَّة منها واللَّفظية؛ إذ غلب على الخطبة السجع القصير والمتوسِّط في فواصله، واستعمل التضاد، والمقابلات، وجمَّلها ببعض أنواع الجناس، وحشد إليها جمعًا من النظائر، وأضفى حسن تقسيمه على النَّص جمالاً وبهاءً، كما

زاوج بين الأساليب الخبريَّة والإنشائيَّة، مُعتمدًا الجُمل القصيرة في أكثرها، وهو مُتأثرٌ بالنَّص القرآني بطرق مُختلفة، منها: الاستشهاد، أو عن طريق أُسلوب التناصّ امتصاصًا واجترارًا واقتباسًا، فقال فيها على سبيل الاستشهاد: «يقول اللهُ تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾، ويقول عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾، وقال جلَّ شأنُه: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾»، وهذا ممّا يُستحب للخطيب على حدِّ تعبير الكلاعي بقوله: «وممَّا يُستحب أنْ يوشّح الخطيب خُطبه بآيات القرآن، فهو أنجح ما ضمنه المُرتجل، وأرجح ما استعان به المُحتفل؛ لأنَّه الموعظة الحَسَنة، والحُجَّة البالغة، والحِكْمة الباهرة، والهادي إلى الرَّشاد والمُنجِّي من الضَّلال»[1]، كما كان لحديث النبي ﷺ حظٌّ في نصِّ خُطبته عن طريق الاستشهاد أو التناصّ بِطُرقه، فمن ذلك قوله عن طريق الاقتباس الحَرْفي: «ومن أحاديث الرسول يقول ﷺ: «النكاحُ من سُنَّتي فمن رَغِبَ عن سُنَّتي فليس مني»، ويقول ﷺ: «مِنْ يُمنِ المرأةِ تسهيلُ أمرِها وقِلةُ صداقِها»، ويقول ﷺ: «أبركهُنَّ أرخصُهنَّ مُهوراً»، ويقول ﷺ: «أربعةٌ من السعادةِ: الزوجةُ الحسنةُ، والمركَبُ الطيبُ، والدَّارُ الواسعةُ، والجار الصالحُ»، ويقول ﷺ: «أربعةٌ من سُنَنِ المرسلين النكاحُ والسِّواكُ والتعطُّرُ والحناءُ»، ويقول ﷺ: «ما استفادَ المؤمِنُ بعد تقوى اللهِ تعالى خيراً له من امرأةٍ صالحةٍ إنْ نظَرَ إليها سَرَّتهُ، وإنْ أمرها أطاعته، وإنْ أقسمَ عليها أبرَّتهُ، وإنْ غاب عنها حفظته في نفسِها ومالِه».

وهذا النَّموذج من فنِّ الخَطابة دليل جيِّد على رتبته فيه، وربَّما يستدلّ على جَودة المُبدع بقليل من النُّصوص، كما قرَّر بعض النُّقاد، وعلى سبيل المِثال: قول محمد بن حازم الباهلي الذي كان يُقدِّم أبا تمَّام ويفضِّله على غيره من الشُّعراء، فكان يُردِّد، لو لم يقل إلَّا مرثيَّته التي أوَّلها: (أَصَمَّ بِكَ النَّاعِي)، وقصيدته (لَوْ يَقْدِرُونَ مَشَوا)؛ لكفتاه[2].

(1) إحكام صنعة الكلام، ص166.

(2) انظر: الأغاني، للأصفهاني، 16/ 418.

الكلمات:

هي لَوْن أشبه بِفَن الخطابة، وهو نَوع مُستحدث في الأدب العربي؛ لظُهور بعض التقاليد الجديدة في الأوساط الثقافيَّة والسياسيَّة، وقد امتطى الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ هذا النوع فكان يلقيه في المَحَافل العِلْميَّة وغيرها، ومنها تلك الكلمات التي كان يرتجلها عند زيارة الشيخ محمد الفاضل بن عاشور إلى طرابلس، وقد وَصَفَها جمع من الحُضور بأنَّها كانت غاية في البلاغة، وقد استعمل فيها الألفاظ اللُّغويَّة الرَّاقية والأساليب البلاغيَّة التي لم يستبنها ويقف على مقاصدها بعض الحُضور من المُتخصِّصين في ذلك الوقت؛ إذ أخبر بهذا أكثر من شخصيَّة عِلْميَّة، وأخبر عن هذا الموقف الشيخ نفسه رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: «كان [الشيخ ابن عاشور] يقوم بزيارة مَعْهد مالك بن أنس الدِّيني من حين لآخر بِنَاءً على دعوة من الجامعة الإسلاميَّة؛ لإلقاء مُحاضرة أو أكثر لطلَّاب المَعْهد، وغيرهم من المَدْعوين، وكنت أتولى تقديم الشيخ المُحاضر والتعقيب على مُحاضرته بعد الفَراغ منها، وكان الشيخ يُصافحني بحرارة، ويُعبِّر لي عن إعجابه الشديد بالأُسلوب "**الزَّياتي**" الذي أستعملُه في الثناء على الشيخ والإشادة بمُحاضرته العامرة»[1]، ولم يحتفظ لنا الزَّمن بها؛ لأنَّها كَلِمات مُرتجلة، ولكن بقي بعض خبرها.

ومن كَلماته رَحِمَهُ اللَّهُ الترحيبيَّة ما أرسله إلى الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي[2]، مُرَحِّبًا به في زيارته إلى ليبيا، بتاريخ 29 ديسمبر 2002م، منها قوله في استفتاحها بعد الحَمْد والصَّلاة: «... فإنَّنا نَشْعر بفيض من السَّعادة يَغْمر جوانحنا في هذا اليوم الذي تستقبل فيه أرضنا أستاذًا جليلًا من أكابر

(1) **مع الناس**، 2/ 550، ولفظة: الزياتي- نسبة لأُسلوب أحمد حسن الزيات، صاحب مجلَّة **الرسالة** التي كانت تصدر في ثلاثينيات القرن العشرين، انظر: مجلَّة **كلية الدعوة الإسلامية**، ع2، 1986م، ص241.

(2) الشيخ العلَّامة يوسف القرضاوي من كبار عُلماء الأُمَّة المُعاصرين له مؤلفاته العِلْميَّة والإبداعيَّة، وله برامج على الفضائيَّات التلفزيونيَّة، وله: كتاب **الحلال والحرام في الإسلام**، **والزكاة في الإسلام**، **وابن القرية والكتاب** (سيرة ذاتية) وغيرها.

أساتذة هذا الجِيل ورائدًا يتبوَّأ الطليعة بين روَّاد الفِكْر الإسلامي المُعاصرين، وإمامًا من أقدر أئمَّة البيان على التعبير باللِّسان العربي المُبين، وقُطباً من أبرز أقطاب العرفان لا يُسْبر له غَور، ولا يُحدّ مَدَاه بأبعاد، ومقاييس إذا تحدَّث أبدع وتألَّق، وانتزع قَصْب السَّبق والتفوُّق، وكُلّ من يستمع إليه يتخيَّل أنَّ حُجَّة الإسلام الغزالي قد بعث من رُقاده، أو أنَّ شيخ الإسلام ابن تيميَّة نَهَض من مِهاده، وهو في أيَّة صِراعات خاض غمارها ضِدّ خُصوم الإسلام في الدَّاخل أو الخارج، كان سِلاحه الكتاب المُبين، وحديث الرَّسول الأمين، والقُدرة الخارقة على الإقناع، وفي جميع المواقف التي تعرَّض لها يخرج منها مرفوع الهامة مُتوَّجاً بتاج الكَرامة؛ لأنَّ اللَّه ﷻ سَنده وظَهيره والحَقّ المُبين حليفه ونصيره، . . . ، إنَّه عَبْقرية تغدق العَطَاء بلا حِسَاب، دائمة الإخصاب تروي ظمأ الظامئين، ولا ينضب لها مَعين»[1]، فلو أنعمت أخي القارئ في النَّص السَّابق لوجدته سَلِساً مُنساباً، دبَّجه صاحبه تدبيجاً رائعاً بأُسلوبه العَذْب غَلَب عليه الأُسلوب السَّجعي على الترسُّل، استدعى فيه شخصيَّات عِلْميَّة من التُّراث الإسلامي وضعها في مُوازنة لبيان قيمة الشيخ القرضاوي العِلْميَّة، ومع قيمتها الفنيَّة والأدبيَّة، كما ترى التقريريَّة التي عمَّت أطراف الكَلِمة الترحيبيَّة، وهي تُعد كلمة مُنصفة من رجل عارف بمقادير الرجال في رجل عالم.

ومن الكلمات ما أبَّن به بعض العُلماء والأصدقاء من أجلّها كلمة تأبين في شيخه العالم الحاج علي الغرياني المُتوفَّى سنة (1394هـ/ 1975م)، قال فيها: «أيُّها السَّائِرون في خِضَمِّ الغفلاتِ المخدوعون ببهارج الحياةِ، لقد حُمَّ القضاءُ، ونَفَّذت مشيئةُ السَّماءِ، وأنهَتِ المسيرةُ إلى غايتِها في عالَمِ الفناءِ، طِبقاً للقانون الأزلِي الذي يُسَيِّرُ الكونَ عُلويَّه وسُفليَّه؛ بنظامٍ بديعٍ مُحْكَمٍ لا تلحَقُه فوضى أو اختلالٌ، رَغْم توالي العُصورِ والأجيالِ، ويَخضَع كُلُّ من فيه وما فيه لحسابٍ دقيق لا يحتملُ إلَّا الصَّوابَ، ولا يَعتَريه خطأٌ أو اضطرابٌ،

(1) من مكتبة أُسرة الشيخ رحمه اللَّه.

فلا أبديةَ ولا خُلود، إلَّا للإله المَعْبود، والموت هو خاتمةُ المَطَافِ لأي كائنٍ في هذا الوجود، أجيالٌ تَهِلُّ لتُمارس في روايةِ الحياةِ الكُبرى دورَها المرسوم إلى أجلٍ مَعْلوم، وأجيالٌ أُخرى تضمَحِلُّ وتتلاشَى في غِمارِ المَجْهولِ حاملةً معها ما استقرَّ في سِجِلَّاتها من حَصادِ مكاسِبها ومُكتسباتها حين تستنفذ كُلَّ دقيقةٍ وثانيةٍ من المِقْدارِ الزمني المرصود لها منذ الأزلِ»[1].

ممَّا يُلاحظ على النَّص السَّابق النَّظرة الفلسفيَّة والتحليل المنطقي لقضيَّة الموت التي حارت فيها الأفكار من القديم فتناولها الشُّعراء والفلاسفة بنظرات إيمانيَّة أو إلحاديَّة دهريَّة، فهي السِّر الغامض في هذا الكَوْن؛ لأنَّها من أمر اللَّه تعالى، وقد زاوج فيه الكاتب بين أُسلوب السَّجع والترسُّل، والجُمل القصيرة والمُتوسطة، كما جاء فيها ببعض التشبيهات والاستعارات، والمُحسّنات البديعيَّة وغيرها، ممَّا تلفت نظر المُتلقِّي وفَهمه قارئًا كان أم مُستمعًا؛ ليتفاعل معها تفاعلاً جيِّداً.

كمَا سجَّل كلمة عن الصَّحفي الكبير عبد القادر أبو هروس (1930هـ/ 1989م) فقال: «قد أسهمَ بوضعِ لَبناتٍ في صَرحِ النهضةِ الأدبيَّةِ والفكريَّةِ حين كان هذا الميدانُ يَطغى عليه التَّصَحُّرُ والإقفارُ فلا اخضرارَ ولا ثمارَ، ولقد آثَرَ أنْ يستهلّ حياتَه الوظيفيَّة بالانتماءِ إلى أُسرةِ التعليم فجَنَّدَ نفسَهُ بمحض إرادَتِهِ في أشرفِ ميدانٍ وحَمَلَ أقدسَ رسالةٍ كانت وستظَلُ إلى الأبدِ تُشِعُّ النُّورَ وتُحاربُ الظلامَ، وتُعِدُّ الرجالَ وتَبني الأجيالَ، وعاش بضعَ سنينَ في صُحبةِ البراعمِ سعيداً بهذهِ الصُّحبةِ يؤدي واجبَهُ التربوي بإخلاصٍ وأمانةٍ والتزامٍ، مُستوحياً ضميرَهُ وولاءَه لوطنهِ، ثم انضمَّ إلى حَمَلةِ الأقلامِ ضِمن فريقٍ من أضرابِهِ الشَّباب، وبدأَ يُمارس فنّ الكتابةِ بكفايةٍ ومَقْدرةٍ مُفعَمَ النَّفسِ بالثقةِ والأمل في الوصولِ إلى الهَدَف الذي يُنشِدُهُ، والمَجْد الذي يطمح إليهِ»، وبعد العرض الرائع لبعض سِيرة الأديب المِهنيَّة تناول أُسلوبه الأدبي قائلاً: «وقد

(1) من مكتبة أُسرة الشيخ رحمه اللَّه.

تَمَيَّزَ أُسلوبُهُ منذ البداية بالرَّصَانةِ والموضوعيَّةِ، والبُعدِ عن الضَّحَالةِ والسَّطحيَّةِ، مُتَرَسِّمًا خُطَى المشاهيرِ من كُتَّابِ القصةِ أمثال: نجيب محفوظ، وإحسان عبد القدوس، ومحمد عبد الحليم، وسعيد العريان، الذين كان يَتَعَشَّقَهم ويُتابع حَصَادَ أقلامِهم ويلتهم بالقراءَةِ كُلّ ما ينشرون من كُتُبٍ أوَّلاً بأوَّل»، وقد ختم الشيخ كلمته بقوله: «وطبيعي أنَّ الكلمةَ الحُرَّةَ إذا لم تجد مُتنفَّسًا لها؛ لتنطلق لا تَلْبُثُ أنْ تختنق؛ لأنَّ المُستعمرين يُلجِمون الأفواهَ، ويفرضون حظراً مُزمِناً وقيوداً مشَدَّدةً على فكرةٍ نيِّرةٍ، أو أي تراثٍ إسلاميٍ، أو قومي تليدٍ أو جديد، ولا يسمحون لأي شُعاعٍ ينبعث، أو إبداعٍ يتألَّق إلَّا بالقَدرِ الذي تدعو إليه مصالحُهم، أو يخدم أغراضَهم الاستعماريَّةَ انطلاقاً من مُخطَّطَاتِهم الظَّالمةِ»[1].

لقد استخدم الشيخ أُسلوباً مُغايراً عن أُسلوبه المُستخدم في بعض نَثْره، فقل في نصِّه هذا السَّجع ومال إلى الترسُّل الذي هو أصل الكتابة النثريَّة، واهتمَّ بجزالة ألفاظه، وقُوَّة معانيه فيها كما عُهِد عنه، فأتى بالغريب المألوف دون أنْ ينشز بالأَسْماع، أو يخدش الأذواق، وهذا ما زاد شَغَف متتبِّعيه لمَحبَّة أدبه رَحِمَهُ اللَّهُ ولا يعجب أنْ وصَفَه تلميذه الشيخ أحمد الخليفي قائلاً: «فهو المَنْهل العَذْب في الأدب، ويُعدّ من أساطين البلد فيه، فهو أوَّل من شنَّف آذاننا بالألفاظ العربيَّة الجَزلة، مثل: العقنقل، والسجنجل، وريّا المخلخل، وناء بكلكل، إلى غير ذلك من الألفاظ العربيَّة القويَّة والغريبة والمأنوسة»[2].

فن المقالة[3]:

يُعد فن المقالة من الفُنون القوليَّة المُستحدثة له خصائصه، وله روَّاده وأساليبه الخاصَّة بهم فيه، وإنْ كانت موجودة في التُّراث العربي كمقالات

(1) من مكتبة أُسرة الشيخ رحمه اللَّه.
(2) مجلَّة **كلية الدعوة الإسلامية**، ع2، 1986م، ص240.
(3) انظر: **المعجم الأدبي**، جبور عبد النور، ص270، **المقالة في أدب العقاد**، د. عبد القادر الطويل، **فن المقالة**، محمد يوسف نجم، انظر: **الأدب العربي الحديث**، د.سالم المعوش، ص209.

الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري، وتقسيم النديم لكتابه **الفهرست**، ولكن من حيث دلالتها الاصطلاحيَّة فهي جديدة، وبداياتها ارتبطت بظُهور الصَّحافة في البِلَاد العربيَّة وهو من تأثير الآداب الأوروبية[1]، وعَرَّفها كثير من النُّقاد منها تعريف جونسون الذي يُعرِّف المقالة: «بأنَّها نزوة عقليَّة لا ينبغي أنْ يكون لها ضابط من نِظام، وهي قطعة لا تجري على نَسَق معلوم، ولم يتم هضمها في نفس كُتَّابها وليست الأشياء المُنظَّمة من المقالة في شيء»[2]، ويقول عنها سيِّد قطب: «أمَّا المقالة فهي فكرة قبل كُلّ شيء وموضوع، فكرة واعية، وموضوع مُعيَّن يحتوي قَضيَّة يراد بحثها، قَضيَّة تجمع عناصرها وترتب، بحيث تؤدي إلى نتيجة مُعيَّنة وغاية مرسومة من أوَّل الأمر، وليس الانفعال الوجداني هو غايتها، ولكنَّه الاقتناع الفكري»[3]، أمَّا الأستاذ عباس العقَّاد فيراها: «مشروع كتاب في موضوعها لِمَنْ يتَّسع وقته للإجمال ولا يتَّسع للتفصيل، فهي في موضوعها كتاب صغير يشتمل على النَّواة التي تنبت الشجرة لمن شاء الانتظار»[4]، ويُعلِّق الأُستاذ خليفة التليسي على التعريفين السابقين من خِلال مُلاحظته للحرَكة الأدبيَّة، بأنَّ المُتتبِّع لتطوُّر المقالة في الأدب العربي الحديث، يُلاحظ بأنَّها قد التزمت المَعْنى الثاني أكثر من التزامها للمفهوم الأوَّل، حتى اتَّهمها بعض النُّقاد بالانحراف والخُروج عن تعريف جونسون[5]، وأغلب مِمَّن عَرَّفها كان تعريفه لها إمَّا بكلام مُشابه أو بكلام مُغاير بِحَسب نظرته لهذا الفن واستقرائه لظاهرة مُعيَّنة فيه.

وتابع أدباء القِطر اللِّيبي الواقع الأدبي في البُلدان العربيَّة في كثير ممَّا طرأ على الأدب العربي عامَّة في الأقطار العربيَّة، ومن ذلك فن المقالة الذي واكبه ثُلَّة من الكُتَّاب اللِّيبيين، وبخاصَّة بعد رواج الصَّحافة، فظهرت صُحف ومجلَّات عِدَّة، تنوّعت مَشَاربها، وتباينت اتِّجاهاتها، وعُرفت كُلّ منها

(1) انظر: **الأدب وفنونه دراسة ونقد**، عز الدِّين إسماعيل، ص248.
(2) **فن المقالة**، محمد يوسف نجم، ص94.
(3) **النقد الأدبي أصوله ومناهجه دار الفكر العربي**، ص94.
(4) **يسألونك**، عباس العقاد، ص6.
(5) انظر: **رحلة عبر الكلمات**، خليفة محمد التليسي، ص26.

بكُتَّابها، ومن أولئك الكُتَّاب على سبيل المِثال: الأُستاذ علي مصطفى المصراتي، والأُستاذ عبد اللطيف أحمد الشويرف، والأُستاذ خليفة محمد التليسي، والأُستاذ علي الدِّيب المُحامي، وعبد القادر أبو هروس، وعلي عبد اللَّه وريث، ود. عمرو النامي وغيرهم مِمَّن دبَّجوا مَقَالاتهم على صفحات الصَّحافة اللِّيبيَّة لفترة من الزمن، تلوَّنت فيها مذاهبهم الكتابيَّة، ومناهجهم الفكريَّة، مع تنوُّع مضامينهم الموضوعيَّة.

وقد ركب الأُستاذ عبد السَّلام خليل رَحِمَهُ اللَّهُ مراكب هذا الفن المُستحدث على آداب العربيَّة بسبب الحاجة إليه لظهور الصِّحافة، وبخاصَّة أنَّه كان تلميذاً نجيباً لمجلَّة الرسالة وكُتَّابِها، الذي كان على رأسهم مؤسسها الأديب الكبير أحمد حسن الزيَّات؛ إذ تَشَرَّب الشيخ طريقته المُتميزة، ونهل من صافي مَعِينه وعلَّ، ومن أهم نِتاج الشيخ في هذا الفن النثري مجموع مقالاته التي جمعها ونشرها في كتاب بعُنوان: (**صرخة مسلم**)[1]، فيا لها من صَرْخة استجاب لها مَنْ هَدَى اللَّه قَلْبه إلى الإيمان، وأصمَّت عنها آذان قوم آخرين، تبعوا هواهم، وأحبُّوا الفُسوق والعِصْيان، وقد قَدَّم له فضيلة الأُستاذ الشيخ محمد نمر الخطيب، رئيس جمعيَّة الرابطة الإسلاميَّة، وقد قسمه الشيخ عبد السَّلام خليل إلى أربعة فُصول، بمجموع ستِّين مقالاً، كما سنبيِّنها، وكان اختياره لعناوين مقالاته اختياراً موفقاً، فعُنوان المقالة ينبغي أنْ يكون حيويّاً، ومشوقاً، وقادراً على إيصال رسالة الكاتب من مَطْلع مقاله، فهو يُعد رأس البراعة الاستهلاليَّة لنجاح الرسالة المُرسلة من خِلاله للجُمهور المُتلقِّي، وهو المُعبِّر عن الفكرة الكلِّية للمقالة وما ينطوي تحتها من أفكار جُزئيَّة التي يطرحها الكاتب للقُرَّاء[2]، فكان الشيخ خليل يُصَدِّرها ويُعنونها إمّا باقتباس قُرآني، أو تضمين جُملة من جوامع الكَلِم النبويَّة -على صاحبها أفضل الصَّلاة والتَّسليم- أو يُعنونها بكلمة من كَلِمِ الحُكماء الخالدة، تناول فيها قضايا الأُمَّة والمُجتمع والأُسرة والفَرْد، في

(1) طُبع مرة واحدة مع بداية العقد السبعيني من القرن العشرين، بدار مكتبة النور، طرابلس ليبيا.

(2) انظر: ربيعي عبد الخالق، **فن المقالة الذاتية في الأدب العربي الحديث**، ص21.

مُستويات الحياة المُتعدِّدة التي يعيشها المسلم؛ لأنَّه كما هو معلوم أنَّ العُنوان مُهمّ لِلَفت انتباه المُتلقِّي.

الفصل الأوَّل: هُتافاتٌ من الأعماق[1]

كنتم خير أُمَّةٍ أُخرِجت للنَّاس -لا يَصلُح آخر هذه الأُمَّة إلَّا بِمَا صَلُح به أوَّلها- هذه العِيدان المُتناثرة يجب أنْ تتجمَّع -أسَّس المُجتمع الإسلامي الجديد- تركت فيكم أمرين لن تضلُّوا ما تمسَّكتم بهما -الطريق الوعر الطويل- بين الإسلام ومدنيَّة الغرب -ذلكم هو سبيل الفوز بكأس المَجْد- إلى الذين يستمعون القول فيتَّبعون أحسنه -إلى كتاب اللَّه وسُنَّةِ رسولِ اللَّه- إنَّ اللَّه لا يُغيِّر ما بقوم حتَّى يُغيِّروا ما بأنفسِهم -رسالةُ هذا الدِّين- إليكم أيُّها السابحون بين غَمَرَات الأحلام -تلك هي الصُّورةِ الكاملة لرُوَّاد القافلة- متى ينقشع هذا الظَّلام الكثيف -هَلُمَّ إلى الرُّكن الأمين...

الفصل الثَّاني: الإسلام يُكَرِّم المرأةَ ويُبارك مسيرةَ العِلْم والحضارة[2]

قلْ هذه سبيلي أدعو إلى اللَّه على بصيرة -الدَّعوة إلى اللَّهِ في آفاقِها الواسعة- قوامُ المدينة الفاضلة -دَعُوهَا في عالَمِها السِّحري لا تُخرِجُوها منه- وإنَّما الأُممُ الأخلاقُ ما بقيت -نحن لسنا أعداء التطوُّر- الإسلامُ براءٌ ممَّا يُرجِفون -مفاهيمُ مغلوطةٌ عن الإسلام- منهجُ الدَّعوةِ إلى اللَّه -الكلمةُ وحدَها لا تُثمر الإصلاحُ المنشود- إنَّ اللَّهَ ليَزع بالسُّلطان ما لا يَزع بالقُرآنِ...

الفصل الثَّالث: إنَّما بُعِثت لأُتمِّمَ مكارمَ الأخلاق[3]

ذلكم هو منهجُ السَّلفِ في الدَّعوة إلى اللَّه -إلى المحجَّةِ البيضاء التي ليلها كنهارها- يجب أنْ نفهم الإسلامَ على حقيقته -ادع إلى ربِّك بالحِكمة والموعظةِ الحَسَنة- إنَّكم لن تَسَعوا النَّاسَ بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم -

(1) ص15-72، وعددها 20 مقالة

(2) ص75-111، وعددها 12 مقالة.

(3) ص113-152، وعددها 11 مقالة.

الكرامةُ رأس مال المؤمن- لا يُؤمن أحدُكم حتى يُحب لأخيه ما يُحب لنفسه - ذو الوجهين لا يكون عند اللَّه وجيهًا- أحلَّ اللَّهُ البيع وحرَّم الرِّبا -الجَزاءُ من جِنْس العمل. . .

الفصل الرَّابع: متى تُشرق الشمس من جديد؟[1]

ذكرى مُرور أربعة عشر قَرناً على نُزول القُرآن -فيلسوف الإسلام الكبير الإمام أبو حامد الغزالي- متى تُشرق الشمس من جديد؟ -شهر المآسي والآلام- من أجل أنْ نُحرز النصر في المعركة -إلى متى نتعزَّى بالدُّروس والعِبَر؟- ولا تيأسوا من رَوحِ الله -يجب أن تكون قضيتُنا الكبرى أكثر وضوحاً- سلاح العقيدة هو السبيل الوحيد للنَّصر -بالدِّينِ انتصرنا في جِهادِنا- ذكرى ميلاد الأُمم المُتحدة -ذكرى الوعد المشؤوم- ذكرى وثيقة حُقوق الإنسان -المُعطيات الإيجابيَّة للمَعْركة- إنْ لم تستح فاصنع ما شئت -احذروا هذا الغزو الرهيب- تحيةُ العام الجديد. . .

تلك هي عناوين صَرخته التي وزَّعها على قضايا المسلمين العامَّة والخاصَّة، ولنقتبس شيئاً من سناء بيانها، ونور أفكارها، التي نبَّهت بعض الغافلين من غفواتهم، وسار بعض النابهين على نور من ضيائها، ولننظر إلى بعض ما يستدل به على طبقته في فن المقالة، فمنها قوله: «أيَّها المُسلمون في كُلّ مكان: يا من كنتم تُشكِّلون أضخم طاقة من طاقات الخَلْق والإبداع ظهرت على مسرح الحياة، يا مَنْ أمسكم أعظم نافذة من نوافذ الإشعاع في تاريخ البشر، يا من أشرقتم على الدّنيا بأروع نِظام عرفه النَّاس، جمع في إطاره المُضيء بين الحياتين المادِّيَّة والروحيَّة، فحتام أنتم قاعدون مُتخلِّفون؟ لا تُرسلون في آفاق الحياة المُظلمة أيَّة وَمْضَة باهرة، ولا تقومون بأي دور مَجيد بنَّاء؟ يبعث في حاضركم روح غابركم، ويُضفي على غدكم صبغة أمسكم، ويضع في أيديكم من جديد زمام القيادة، ويرتفع بأمتكم مرَّة أُخرى

(1) ص154-228، وعددها 18 مقالة.

إلى مركز السِّيادة، فمتى تنهضون من كَبْوتكم؟ ومتى تفيقون من غَفْوتكم؟ ومتى تنتبهون إلى أخطائكم فتُصلحونها؟ وإلى مواطن الضّعف فيكم فتقوونها»[1]، ثمَّ أردف قوله السَّابق بما نصّه: «إنَّكم واللَّه لن تنتصروا على أعدائكم في الدَّاخل والخارج إلَّا إذا انتصرتم أوَّلًا على أنفسكم، ولن تستطيعوا النَّصر على أنفسكم إلَّا إذا تحرَّرتم من أنانيَّتكم، وتغلَّبتم على شهواتكم وغرائزكم، ونظرتم إلى وطنكم الكبير كوحدة روحيَّة كُبرى لا ينبغي أن تتمزَّق، إنَّكم ما لم تعمدوا إلى دينكم الإسلامي الحنيف، تجدِّدون شَبابه في أرواحكم وعُقولكم، وكُلّ أنواع سُلوككم الفردي والاجتماعي، وتعكسون ضياءه في كُلّ مِيدان من ميادين حياتكم فإنَّكم لن تقووا على الصُّمود مَهْما بذلتم من مُحاولات ولن تدفعوا بِعَالَمكم الإسلامي إلى دنيا المَجْد والخُلود»[2].

أمَّا منهج الشيخ في الدَّعوة إلى اللَّه وطريقه، فأشار إليه في أكثر من موضع من كتابه **صرخة مسلم**، منها قائلاً: «ومنهج الدَّعوة إلى اللَّه يُحتِّم على كُلّ مسلم يملك الكلمة ألَّا يتعصَّب لكُلّ قديم، وألَّا يتحامل على كُلّ جديد، وإنَّما يعمد إلى مقاييس العقل ومعايير الإسلام الحَقّ، فما أقرَّته وباركته نادى به ودعا له، وما لفظته وأنكرته مجَّهُ، وأعلن الحرب عليه، منتهجاً في ذلك سبيل الحِكْمة والموعظة الحَسَنة، مُستعيناً بوسائل الإقناع التي تعتمد على المنطق الواضح والحُجَّة البالغة»[3]، ومن النَّص السَّابق نتعرَّف على وسطيَّة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ونهجه اللَّين والسَّهل في طريقه الدَّعوي.

وفي حديثه عن تقليد المرأة المسلمة للمرأة الغربيَّة كلام في أكثر من موضع منها قوله في المقالة السابقة: «وهو ما نراه من تهافت المرأة المُسلمة على تقليد المرأة الغربيَّة في زيِّها ومظهرها، ضاربة عَرْض الحائط بِمَا أوجبه عليها الدِّين وما ألزمتها به التقاليد النبيلة الموروثة من الحفاظ والتصوُّن

(1) **صرخة مسلم**، ص28.
(2) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
(3) **الدعوة إلى الله في أفاقها الواسعة**، ص78.

والتجمل بالشَّرف والعِفَّة، الأمر الذي يدلّ على تزعزع إيمانها بهذه المُقدَّسات، وعلى خُفوت صوت الفضيلة في أعماقها»[1].

كما رد في صَرْخته على بعض المُتطفِّلين على العلم والدِّين، فقال في وصَفْه: «وينسبون للإسلام ما ليس منه مُنتحلين مُفتعلين، يقولون للنَّاس هذا حَلَال وهذا حَرَام، وهُم أجهل النَّاس بالحَلال والحَرام، يُرَغِّبُونَ ويُرْهِبون، ويُحذِّرون ويُبشِّرون؛ كأنَّما هُم بمفاتيح الغَيْب مُمْسكون، وعلى خزائن رحمة ربك مُسيطرون، ولوسائل الثواب والعِقاب مالكون، ابتلي بهم العامَّة فزادوا عُقولهم تجمداً وتحجيراً، وصوَّروا لهم الإسلام سجناً كبيراً، وهُم يُصدِّقونهم في كُلّ ما يقولون، ويؤمنون بكُلّ ما يقرؤون كما لو كان تنزيلاً من التنزيل، وما هو في الواقع إلَّا تدجيل وتضليل»[2]، وفي مقاله هذا يرد على خطيب صَعد المنبر فكفَّر وأبهت من الأعمال ما لا يكفر فاعلها على الحقيقة، فكان عُنوان المقال: (يجب أنْ نفهم الإسلام على حقيقته)، وعند خِتامه لمقاله تحدث عن الوسطيَّة، فقال: «ذلك هو المنهج الوسط الذي اختطَّه الإسلام لأتباعه دون أنْ يغمط أي الحياتين حقّها أو يخلق من الإنسان ملاكاً، أو يهبط بالإنسان إلى حضيض الحيوان»[3]، لأنَّ اللَّه -تعالى- يقول في مُحكم التنزيل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[4]، كَمَا نَهَى الرَّسول ﷺ عن التنطُّع في أكثر من موضع من أحاديثه الشريفة منها قوله: «هلك المُتنطِّعون»[5].

ومِنْ مقالاته الدِّينيَّة في غير كتابه (**صرخة مسلم**)، ما كتبه بأشواقه إلى المعاهد القُدسيَّة في الحرمين في أحد مواسم الحَجّ خاطب فيها ضُيوف الرحمن -حجيج بيت اللَّه الحرام- في مقالة بعُنوان: (أيَّتها الوفود الغادية

(1) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
(2) م. ن.، ص122.
(3) **صرخة مسلم**، ص124.
(4) سورة البقرة، الآية: 143.
(5) **صحيح مسلم**، 4/ 2055.

لبيت اللَّه الحَرام) قال في ضِمنها: «وعندما يُطِلُّ هذا الموسمُ من كُلِّ عامٍ ترتفع أصواتُ الآلاف المؤلَّفة من جميعِ أرجاءِ العالم الإسلامي الأكبرِ مُلبِّيةً نِداءَ الخليلِ الأعظم إبراهيم عليه السلام الذي أرسله من بين شِعابِ مكَّةَ قبل آلاف السِّنين قويّاً مجلجِلًا فتجاوبت صَداه أقاليمُ الأرضِ بما فيها من إنسانٍ وحيوانٍ وحَجَرٍ وشجرٍ وما زال ذلك الصَّوتُ المهيبُ الوقور يتردَّد في أسماعِ الأجيالِ عَبْر العُصورِ هاتفاً بالمؤمنين أنْ ينطلقوا سِراعًا إلى بيتِ اللَّهِ الحَرَام ليشهَدوا منافعَ لهم ويذكروا اسمَ اللَّهِ في أيامٍ معدودات، فتغشَّاهم من رحمتهِ نسماتٌ، وتَغمُرهم من نُورهِ القُدسي إشراقاتٌ، ويُصعِدُهم ربُّهم في سُلَّمِ القُرب درجاتٍ، ويُصبِحُ سِجلُ أعمالِهم مُتألقَ السُّطورِ ناصِعَ الصَّفحاتِ، وما كان إبراهيمُ في ذلك الهُتاف العظيم الذي أسمَعَ المَوْتى في القُبورِ، واهتزَّت له جلاميدُ الصُّخور، وخشعت له الأوابدُ والطُّيور والحِيتانُ في البحور، إلَّا مُستجيباً لهذا القولِ الكريم: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾»[1].

أو قوله في ما عَنْونه (من الأمانة كتم السِّر) وَوَصَفه بـ(حديث تهذيب) استهلَّها قائلاً: «إذا أفضَى إليك أحدٌ بذاتِ نفسِه وأفرَغَ بين يديك مُحتوياتِ صدرِهِ وطلب منك أن تعتبِر ذلك سرًّا لا يجوز أن يتسرب منك إلى سِواك، فإنَّ هذا الشخصَ قد أودعَكَ أمانةً غاليةً، وحِفظُ الأمانةِ من أقدسِ الواجباتِ الدِّينيَّة والإنسانيَّة، وهو إنَّمَا فعل ذلك ليستنير برأيك في حَلِّ مشاكلِه؛ وليُخَفِفَ عن نفسِه قِسطاً من العِبءِ الثقيلِ الذي ينوءُ به كاهِلُه ولا يُطِيق احتمالَه وحدَه، وإذا كان قد وَثِقَ بك واطمأنَّ إليك حين أشرَكك في سِرِّهِ وأطلَعَكَ على جَليةِ أمرِه، فإنَّ من واجبِك أنت الآخر أنْ تكون إنسانًا نبيلاً جَدِيراً بالثّقةِ التي وضعها في شخصِك، ممَّا يُحتِّم عليك أنْ تصون سرَّه ولا تُخيِّب رجاءَه فيك وحسنَ ظنِّه بك. أما إذا أفشيت السِّر الذي استودعك إيَّاه وأغرتك نفسُك الأمارة بالسُّوء أن تُشيعَه في كُلّ مكان مُنتَشِياً بما تجده من لَذةٍ

(1) سورة الحج، الآية: 27.

كُبرى، فإنك قد أضعت الأمانة التي قد حملتها في عنقك، وتعهّدت بصونها والمُحافظة عليها، وخيانة الأمانة من آيات المُنافقين وليست من أخلاق المؤمنين وهذا رسول الله ﷺ يقول: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»[1].

ولو نظرت في النُّصوص السابقة المُختارة على قلَّتها -دفعاً للإطالة- وأنعمت النظر فإنَّك تدرك كثيراً من القيم الفنية لهذا الكاتب الكبير، وفي ذلك بيان على علو طبقته النثرية، ورقيّها إلى مَصَافّ كبار الكتاب من مُعاصريه، بله بعض من تقدّمه، وممَّا تميَّز به الشيخ ذلك التعدُّد في ألوان الكتابة، فلكل جنس أدبي قواعده الخاصة به، ومن الملحوظ على أُسلوبه في النصوص السابقة: تخيُّر الألفاظ، وحُسن تقسيم العبارات، وقوة البرهان، والإقناع بالحُجَّة، مع استخدام طائفة من الأساليب البلاغيَّة، وبعض المُحَسّنات البديعيَّة اللفظيَّة والمعنويَّة، جامعاً فيها بين السجع تارة، والترسل تارة أُخرى، ومن الفواصل السجعية القصيرة إلى المتوسطة، مع تلوين أساليبه بالتضاد، والجناس، وغيرها مما يحتاجه الكاتب لتوضيح معانيه للقراء، فيزيدها بذلك رونقاً وبهاءً[2].

البرامج الإذاعيَة:

كان لانطلاق بثّ الإذاعة اللِّيبيَّة وقع خاص على الشيخ رحمه الله فما أنْ أُتيحت له الفُرصة حتى اغتنمها، ووجَّهها الوجهة الصحيحة، ووظَّفها توظيفاً لخِدْمة المُجتمع من خِلال مجموعة من البرامج المَسْموعة، التي كان يطل به على جُمهوره من المُستمعين، قال عنها الشيخ الدكتور أحمد الخليفي -أحد تلامذته- قائلاً: «كان يبث برامج كثيرة في الإذاعة، وأنشأ ركن الإسلاميَّات بها منذ تأسيسها»[3]، كما نتعرَّف عليها من خِلال إجابة الشيخ عبد السَّلام خليل

(1) **صحيح مسلم**، باب بيان خِصال المُنافق، حديث رقم 107، 1/ 78.
(2) انظر: مجلَّة **كلية الدعوة الإسلامية**، ع12، 1995م، ص291.
(3) تأسست الإذاعة اللِّيبيَّة سنة 1957م، انظر: مجلَّة **كلية الدعوة الإسلامية**، ع2، 1985م ص240.

حَوْل مُشاركته الإذاعيَّة فأجاب بقوله: «كنت والحمد للَّه من أوائل الذين أسهموا بأقلامهم في تقديم البرامج الإذاعيَّة فقد كانت لي أحاديثٌ تُذاع تحت عناوين مُختلفة، منها أحاديث في تفسير القرآن بعُنوان: (**قبس من نور الله**)، وحديث آخر بعنوان: (**صور من حياة الناس**)، وسِلْسِلة من الأحاديث الدِّينيَّة يحمل كُلّ منها العُنوان الذي يُطابق مَضْمونه، كما زوَّدت الإذاعة بعدد من **التمثيليات** التي تتراوح مُدَّتها بين عشر دقائق وساعة كاملة، ومن بينها مسلسل بعُنوان: (**أجواء عربية**)، وآخر بعنوان: (**طرائف عربية**)، بالإضافة إلى مجموعة من **المسلسلات** التاريخيَّة المُشتملة على ثلاثين حَلقة، ومن بينها: (**أمين الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح**)، و(**أبو ذر الغفاري أول اشتراكي في الإسلام**)، و(**سيف الله في أرضه خالد بن الوليد**)، و(**الخليفة الخامس** عمر بن عبد العزيز)، و(**سلطان العُلماء** العز بن عبد السلام)، و(**عبد الرحمن الناصر لدين اللَّه، الخليفة الأندلسي الشهير**)، و(السلطان الفاتح صلاح الدِّين الأيوبي، مُحرِّر القُدس وقاهر الصليبيين)»[1].

وممَّا أطلَّ به على جُمهوره من خِلال المنبر الإذاعي كما قال في حديثه بأنَّه قَدَّم: «مُسَلْسلًا رمضانيّاً بعُنوان: (**قصة وآية**) فقد قَدَّمته بالنيابة عن الأخ الأُستاذ عبد اللطيف الشويرف الذي اعتذر عن تقديمه في تلك السَّنة، ولمَّا أُسست الجامعة الإسلاميَّة في بداية الستينيات انتدبتني مَشْيخة الجامعة لتقديم رُكن إذاعي مُدَّته نصف ساعة مَرَّة كُلّ أُسبوع، ثم طلبت الجامعة تقديم هذا الرُّكن الذي يَحْمل اسمها مرَّتين في الأُسبوع، وكنت أكتب فقرات هذا الرُّكن ذات المواضيع المُختلفة منها: (سبيل المؤمنين)، وهو يُذاع في بداية هذا الرُّكن، وآخر بعُنوان: (من أسرار هذا الدِّين)، وثالث: (من الدخيل على السُّنة)، وفقرة بعُنوان: (عظة بالغة)، وأُخرى بعنوان: (أخطاء شائعة)، و: (أدوار رسالة رائدة)، و: (أنتم تسألون ونحن نجيب)»[2]، ونستدلّ من زخم أعمال الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ المذكورة آنفاً، بأنَّه لم يكن انطوائيّاً، بل كان مُنفتحاً على

(1) **مع الناس**، أ. الطاهر النعاس، 2/ 549.
(2) المصدر السابق، 2/ 549.

بوابات مُتعدِّدة التقليديَّة منها والحديثة، سَعْياً منه لتنويع وسائله الدَّعويَّة والتوعويَّة؛ لإيصال فكره وعِلْمه إلى أبناء مُجتمعه المسلم.

وربَّما نكتفي بهذا القَدر من التحليلات الفنيَّة لبعض أعمال الشيخ عبد السَّلام خليل النثريَّة التي قدَّمها أُستاذي الدكتور عبد الحميد الهرامة عن شِعره فقال: «أمَّا شعره فهو على جَودته أقل شفوفاً من نَثْره فالرَّجل قد سخَّر قَلَمه للنثر كاتباً وخطيباً، تمرَّس على صِناعة الكلمة المؤثِّرة في الإذاعة والصَّحافة والمُناسبات المُختلفة»[1]، أمَّا خصائص نَثْره فقال عنها: «عرف النَّاس الشيخ الأديب عبد السَّلام خليل ببيانه الذي يعتمد فيه توازن الجُمل، فيرنو إلى الترسُّل تارة وإلى السَّجع غير المُستكره تارة أُخرى، كما عرف بدقَّة اختيار الألفاظ، واقتناصها من غير مألوف الكَلَام، دون أنْ يقع في مَحْذور الغَرابة والحُوشية أو يتدنَّى إلى العاميَّة والإسفاف»[2]، أمَّا موضوعاتها فقد شَحَنها بهُموم المُسلمين، مُتخذاً من فنّ القول العربيّ الإسلاميّ مَنْهجاً له من بداياته الإبداعيَّة مع أربعينيات القرن العشرين، ولا عَجَب ولا غَرابة بأنْ يتَّفق مع كثير من مُصْلِحي الأُمَّة وعُلمائها من أمثال: جمال الدِّين الأفغاني، ومحمد عبده، من خِلال مجلَّة **العروة الوثقى**، ومحب الدِّين الخطيب من خِلال مجلَّة **الفتح الإسلامي**، وبديع الزمان سعيد النورسي في خطبته الشاميَّة المُعنونة بـ: (صَرْخة في موات أُمة)، أو كلمة طنطاوي جوهري في كتابه **نهضة الأمة وحياته**، وأبي الحسن الندوي في كتابه **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**، وغيرهم من المُصلحين في العالم الإسلامي[3]، وهذه دلالة واضحة أنَّها كانت كلمات وآهات وصَرخات خرجت من قُلوب مَمْلوءة بالإيمان باللَّه، وأرواح مُفْعمة بمحبة رسوله الكريم ﷺ، ودينه القويم، وبذلك تقاربت أفكارهم كُلّ بِمَا يُمليه عليه روح عَصْره، وتوحَّدت سُبُلهم للخُروج بالأُمَّة من التِّيه والضَّياع، ولكنَّك أسمعتَ لو ناديت حيّاً.

(1) انظر: **مجلَّة كلية الدعوة الإسلامية**، ع12، 1995م، ص291.
(2) انظر: المرجع نفسه، والصفحة نفسها.
(3) انظر: **زعماء الإصلاح في العصر الحديث**، أحمد أمين.

وبعد هذه الرّحلة التي جُلْنَا فيها مع نُصوص الشيخ عبد السَّلام خليل في روائع أدبه، ورجاحة فكره الإسلامي، وبخاصَّة بين رياضه المنثورة، التي عرض فيها قضايا المُسلمين المُهمَّة، فلم تغب عنه قضيَّة من قضاياه، خاض غمارها بالنِّيَّة الجِهاديَّة بالكلمة الرائعة، والكلمة الموجَّهة، والفكرة الهادفة؛ لتحقيق أسْمَى غايات الحياة لأُمَّته الإسلاميَّة والعربيَّة؛ مبيِّنًا فيها سُبُل النصر والنُّجح، فلم نره يتوانَى فيها عن إبداء النَّصيحة للمُسلمين حُكَّامًا وشعوبًا اتِّباعًا لقول النبي ﷺ: «الدِّين النَّصيحة، قلنا: لِمَنْ: قال: للَّه، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمَّة المُسلمين وعامَّتهم»[1]، ولذلك اتَّخذ الشيخ الإصلاح والدَّعوة إلى اللَّه ديدنًا له، بقلمه، وبكلمه شعرًا ونثرًا، قصَّة، وتمثيلية، ومسرحيَّة، فكان يرى دور النَّصيحة الفاعل في أي شكل فني، وفي أي جنس أدبي، ما دامت تؤدِّي الغرض المطلوب من إيقاظ الهِمَم الغافية، وتنبيه العُقول الحالمة، والنُّفوس النائمة، لتصنع الغد الجديد؛ الغد الذي تعود فيه الحياة المطمئنَّة الآمنة للشعوب الإسلامية، في ظل مُجتمع مُسلم تسوده المحبَّة والألفة والوئام، وتعود الراية فيه للمُسلمين، وتأخذ الأُمَّة الإسلاميَّة مكانتها بين الأُمم، كما كانت في عهودها السالفة؛ لتقود العالم من جديد في جميع مجالات الحياة.

(1) **صحيح مسلم**، 2/ 37، وفي بعض روايته: (إنَّما الدِّين النَّصيحة)، منها: رواية النّسائي، ومسند الإمام أحمد.